فن يستيقظ

للأديب نوري الراوي

فهم العربي جمال الكون بكل حواسه فأطلقه شعراً يفيض باختلاج حسه القصي ، ثم أنفذه نغماً في صميم الليالي الأندلسية البيضاء ... وعاد فمات في عتمة الغسق التركي ، فكانت بقيته اليوم بين حشرجة الماضي ويقظة الحاضر نسيساً في نفس مجروح ، ونسمة من نسماته الندية تنطلق اليوم بعد فترة جمام كادت تطمس على خصائصه الأصيلة فتحيلها إلى العدم أو النسيان ؛ ولكن الله الذي حفظ الروح العربية الإسلامية دهوراً طوالاً أراد أن يوقظها في صفوة أبنائها اليوم فكان ما أراد الله

وشهدت العصور الحديثة أكل القوى في ثورة تشمل الروح والجسد ، يدعمها الإيمان ويشدها الحق وتظللها الحرية ، فأدركت أن وراء هذه الأنفاس المقهورة نفساً يريد أن يكون لهيباً من جهنم ، وشواظاً من بركان

ولكن الزمن الذي اتسع لأمجاد الفن العربي في مختلف عصوره ، زحف زحفته المدوية ، فطوى بين أثنائه أياماً كانت شجىً في الحلق ، ليلبس ثوب هذا اليوم الحديث في صورة من التأريخ . إن وراء المجد الذي كان بالأمس، قوة من المعنى أدارت رحاه ، ونواة من الفن حفظت نوعه ، فمضى يخط تاريخه في جلال الظافر وكبريائه ، حتى دهمته الذئاب الدخيلة ! فعبثت بروحانيته كما تعبث الريح بالرمال وأجهزت على فنيته فحطمتها

وبين عصرين من عصور التاريخ ، تقلبت فيها الأحداث ، وتخبطت فيها الخطوط ، وتعاقبت على صفحاتها الأيام ، منى الفن العتيد بخطوب جسام كادت تشرف به على الهلاك ... ولكنها الروح التي لزمته في صحارى الحجاز ودللته في بلاد المجد المفقود وهدهدت أعطافه على ضفاف بردى والفراتين عادت فاندفقت بين أضلع سادها الهدوء أزماناً ...

لقد كان الفن العربي يوصل الأمة بمعنى من الجلال يسمو بها عن المدارك الدنيا إلى أجواء أمتع وأمنع حتى إذا ما رفعت أبصارها عن الأرض ... حتى إذا ما انعتقت من أسر المادة ، فهمت الفضيلة ؛ فسادت بالرحمة وحاربت بالأيمان ... وكان هذا سر الخلود

حينما تكن الأمة من المكانة يكن حبها للفن ، لأن النفعيات مطالب من مطالب الحياة الوضيعة التي تعيش لتموت ، لا الحياة التي تعيش لتدوم ... لتخلد .. لتقول للتأريخ ها أنذا فاكتب ...

ولكنه الفكر العربي الجبار يبرهن على وجوده ، يبرهن على قوته ، يوم يعرف أن للحياة منازع غير ما علمته إياه البهيمية الأولى في الغابات والكهوف ! ... ليكون أستاذاً في تلقين المثل العليا لكل من يلوك اللفظ فلا يقع لسانه إلا على الأكل ... والنوم .. والانباش ...

هنا يقف الفكر الحديث عند حد تنتهي به سياحته ، الفكر الحديث الذي يعبد الآلة ويمجد المادة ويستعذب الوقوف أمام الصنم الجبار ؛ ليجد أن العربي سبقه في الحياة وسبقه في الفكر وسبقه في التأسيس

برهان واحد من براهين أشتات نقف منه على حياة أجيال ماتت ... لنكون نحن بقيتها على الأرض نوطن النفس على حمل هذا العبء الذي حمله الجدود أزماناً

في هذا المدى الوسيع الذي يشمل الصين في أقصى الشرق ويقف عند أزباد بحر الظلمات ! بذر العربي بذور فنه الأولى ، فكان الجامع الأموي في الشام يطاول بمآذنه السماء ، وكان المسجد الأقصى يهزأ بالدهر الغلاب ، وكانت معجزات الأندلس وعظائم بغداد شاهدة على ذلك الخلود . هو الغرس العربي ، يثمر رجالاً يمجدون الله ، ينتج مآذن تجلجل فوق سامقات رؤوسها كلمة : « الله أكبر » . . .

ينتج فناً روحياً لم تسبقه إليه جهالات الأوربيين . . .

هنالك في الصحراء ... الصحراء التي يضيع البصر في مهامه مداها الوسيع ، ويسبح الفكر على منكب لجتها السمراء ، فما يزال يطفو ويرسب حتى يبلغ محجة تنقطع عندها أسبابه : تمخض الزمن الولود عن دين العلم والفن ، فكانت أول بسمة من بسماته الندية ترف على روابي الحجاز وترتمش فوق بطاح الجزيرة ، ثم لا تقف عند هذا حتى تفيض على العالم القديم

بأسره فتشمله . هنا يبدأ بنا السبيل فى سياحة مضنية طويلة ، تريد جهداً ودأباً واصطباراً ...

لقد جاء الإسلام ، وفى النفس الجاهلية اعوجاج وهنجهية ، فأقام الأول وأغرق الثانية حتى دياًها لأن تتقبل المعانى الجديدة وتستوعبها . فيقودها إلى غاية أبعد منها وأسمى ألا وهى : الفتوح ونشر الرسالة . ولقد كان الفتح أول الأسباب غير المباشرة إلى نضوج الذوق العربى لاختلاط البادية بالمدينة والشمس بالظل وتكوين لون جديد له سمة الميشتين وطابع الحيانين ، وكذلك أجزل الفتح المال والمال وسيلة الفن إلى الكمال ، حيث أثمر هذا الاختلاط فكانت ثمرته تلك الحضارة الراسخة التى قال عنها بعض الإفرنج : إنها وليدة الحضارتين اليونانية والرومانية وما هى إلا عربية أصيلة الدم ؛ لها لفحة الشمس وثورة الرمال التى لا تهدأ ولا تثوب ...

هنا يدخل الدين بروحانيته فى عداد هذه الأسباب التى أسبغت على الفن لوناً من ألوان الجمال الراكد والتأثير العميق ... الدين الذى ارتقى بمعنويته إلى الله فعرفه ، وغار فى الأعماق فوقع على أسرار الكون وحقيقة الوجود ؛ ثم تلمس الخلود عن المادة فطاوعته فإذا هى ريازة تبهر العقول ، وإذا هى قباب تغرق فى اللازورد ، وإذا هى جوامع تبقى على الدهر باسم الله ...

أما النفسية الطليقة ... النفسية التى تجاذبتها عوامل البيئة الصحراوية المدنية ، فرسمت على أديمها صفاء السماء وكدرتها ، وخطت على صفحتها هدوء الطبيعة وثورتها ، فقد تغنت بلسان حسان ، وابن أبى ربيعة ، والمتنبى ، والمعرى ، وأبى تمام . فرجعت صدى هذه الأغنيات للسنون ...

ما كان للعربى الأول أن يبرع فى فن التصوير ليعبر به عن خواجله وآماله ومثله ، ولكنه تكلم فصدق ، وقال فكانت أقواله لوحات ترسم ألوان مشاعره منطلقة ، حرة ، عارية ؛ وهذه وسيلة واحدة يتوسل بها ربيب الصحراء للتعبير عن خواجله ونزعاته ... لينقل كل ما يجيش به وجدانه من العواطف إلى أسماع تستلذ هذا الوقع الجميل وتستعذب هذه النغمة المطردة يلونها الزمن من حين إلى حين

على أن هذا الفن العريق الذى تتصل جذوره بأعماق الخيال البدوى كان أسبق وجوداً من بقية الفنون الأخرى

وعلى هذا السبيل المعهد تساوقت الفنون إلى البعث بعد أن كانت تثوى فى ركن من أركان العقل البدوى ساكنة سكون البركان الذى يحمل معانى الثورة والاندفاع

لقد كان للطبيعة العربية القابلية الكبيرة على الأحداث والتوليد ، وما الشعر إلا سورة من تلك الصور الممتعة التى عرفها العرب باسم « الآداب الرفيعة » ، وذلك حينما تركز المجتمع فى ظل المدينة وامتزج بعضه ببعضه ليكون هذا الفن الذى نشاهده فى قصور الحمراء وبرج الذهب وجنة الريف . . ليكون هذه الموسيقى الساحرة ترجعها نغمات « بلنسيا » ، على أسماع اللاتين من أبناء الغرب ، وفيها تتجلى الروح العربية الصافية بتأثيرها وعذوبتها وجمالها . .

* * *

ومشى الزمن يوسع الخطى ؛ فإذا بعبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس يقف على ربوة عالية ، يستشرف ملكه المضاع من خلال الهدب الرفاف بالدمع ... وإذا ذلك الخلود بجنانه وقصوره ، وأبهائه ومدارسه ، ومحاريبه وجوامعه ، يستحيل شيئاً فشيئاً إلى حلم ينطوى كلمح السراب ... ويهيم الشراع فى الفضاء :

ألا انقضى آخر أمل للعرب فى الفردوس . . . ثم تبقى تلك الجلائل شاخصة إلى السماء كأنما هى تستغيث بالله ... حتى يدركها الأين فتهوى صريعة الزمن العسوف ركاماً يسابق ركاما ... ولكن قنابل فرانكو تريد ولا يهمها أن تكون صفحة سوداء فى وجه التاريخ .

* * *

إن الاتجاه القومى فى العراق بادرة من بوادر اليقظة فى الأمة العربية فيجب أن يكون له نصيب من الروح كما يجب أن يكون له نصيب من المادة

وها نحن اليوم على وشك الدخول فى حياة جديدة مغايرة لتلك الحياة التى تصرمت بين جهل الرعية وظلم السلطان واستبداد الدخيل . وآن للفن أن يستيقظ وينشط فيأخذ مكانه كسبب خطير من أسباب الحضارة الكاملة ، وعامل من عوامل النهضة المقومة ...